صدر عن (المدى)

عوامل التأثير والتأثر بين الثقافة الشعبية والثقافة الجماهيرية

صدر عن مؤسسة (المدى) للإعلام والثقافة والفنون كتاب جديد للباحثة الكويتية د.حصة سيد زيد الرفاعي تحت عنوان المأثورات الشعبية .النظرية والتأويل ، وسبق للدكتورة الرفاعي ان اصدرت كتابها المهم (أغاني البحر) في الثمانينيات وشاركت بفعالية في ندوة بغداد للتراث الشعبي وكانت عضواً للهيئة الاستشارية لمجلة (التراث الشعبي) العراقية. (ثقافة شعبية) تنشر القسم الأول من هذا البحث الذي يشكل جزءاً من دراسة مطولة عن (الفلكلور في الوسائط الجماهيرية).

لابد للباحث في مضمار الإبداع الشعبي من الالتفات الى عوامل التأثير والتأثر بين الثقافتين، الشعبية والجماهيرية. والتي تصاعدت بشكل واضح في عصرنا الحاضر نتيجة عاملين أساسيين:

أولاً:

اتجاه الدراسات الفولكلورية المعاصرة نحو التواصل الجماهيري. فدراسة المادة الشعبية، كما سبق القول، لم تعد مقصورة على النصوص، ولكنها تجاوزت ذلك إلى العناية بالمأثور الشعبي على انه بناء متكامل يتناغم فيه الإبداع (النص) وقدرات الفنان الإبداعية، كعامل مؤثر في طبيعة النص، والجمهور المستمع كعنصر فاعل في سياق الإبداع من حيث المشاركة بإيماءات أو صيحات تشجيع أو اعتراض على المؤدي.

يقول الباحث توم بيرنز: على الباحث ان يفهم الفولكلور عل انه رسالة مرسلة من باعث (المبدع) وعملية الإبداع على انها تعبير عن الموقف التراثي والجهد الإنساني والحدث الاجتماعي. وهذا الحدث يتصاعد باستمرارية التفاعل مع الجمهور ومدى استجابته للمبدع وماهية الإبداع. هذه العناصر المتداخلة لا يمكن، بأية حال، فصلها عن النص. ليس فقط لأن المحيط الطبيعي أمر ضروري لفهم النص ولكن لأن السياق الطبيعي للأداء يعد جزءاً مهماً من مكونات المادة الشعبية نفسها. ومهمة الباحث ليست فقط استنباط النص الشعبي ولكن التحقق من مدى اتسام المحيط الاجتماعي الذي يؤدي فيه ذلك النص والجمهور المستمع إلى النص بالأصالة الشعبية وهذه . بلا شك . مهمة شاقة معقدة تواجه الباحث في مجال دراسة التفاعل الجماهيري.

ثانياً:

أثر وسائل الإعلام الواضح في حياتنا المعاصرة. فالوسائط الجماهيرية قد أثرت كثيراً في صياغة نمط حياة الإنسان في المجتمع المعاصر وظهر التأثير واضحاً في طبيعة صياغة مأثوراته الشعبية.

ولا يفوتنا في هذا الصدد ان نؤكد بأن من السمات الأساسية للفولكلور المرونة والقدرة على التكييف مع ظروف الحياة الجديدة. فالمأثور الشعبي في المفهوم الحديث للفولكلور، ليس فقط تراكماً لخبرات فكرية تشكلت عبر أجيال عديدة ولكنه أيضاً حركة دينامية وعملية تغير مستمر لمواكبة تطور الإنسانية، ومن هذا المنطلق، نستطيع ان نتتبع اثر الوسائط الجماهيرية في تغيير أساليب حياة الناس والذي أدى بالمقابل إلى احداث تغير ملحوظ في تراثهم الشعبي.

ويختلف الباحثون في تفسير هذا التغيير سلباً أو ايجاباً. فالباحث ريتشارد كاربنتر يرى أن أوقات الفراغ التي كان الناس يقضونها في سماع الملاحم والمواويل القصصية والاستمتاع بالألعاب الشعبية في ظل طقوس وتقاليد عائلية معينة تكاد تندثر في مجتمعنا المعاصر، ويعزو كاربنتر ذلك إلى ان الناس قد استبدلوا بهذه الممارسات الترفيهية المشتركة مشاهدة برامج التلفاز المفضلة.

ويتتبع عالم الاجتماع جيري ستينر في بحثه "الناس يشاهدون التلفاز" التأثير الملحوظ للتلفاز على العادات العائلية، كعادات الطعام والاجتماعات الليلية التي صاروا يصممونها لتتواءم مع البرامج التلفزيونية.

أما الباحث أوتو لارسن فهو يؤكد ان التلفاز صار يعني للكثيرين المصدر الأكثر مصداقية لاستخلاص المعلومات التي تدور حول حقيقة العالم. ويضيف ان الوسائط الجماهيرية بعامة قد أثرت كثيراً في صياغة نمط حياة الناس وغدت تشكل محور نشاطاتهم الترفيهية.

والتلفاز . بلا شك . هو قلب هذا المحور. ويعتقد لارسن ان الوقت الطويل الذي يخصصه الناس في المجتمع الأمريكي المعاصر لمشاهدة برامج التلفاز وسماع المذياع وقراءة الصحف اليومية من شأنه ان يؤثر في تشكيل نمط حياتهم. وهو يقترح عمل دراسة إحصائية، ليس بخصوص تأثير وسائل الأعلام في حياة الناس، ولكن عن مقدار هذا التأثير، والظروف التي يتم فيها، وفئات الناس الذين يتعرضون لهذا التأثير.

ويتفق عدد من العلماء، على ان من الجوانب السلبية التي حدثت بسبب متابعة الناس لما تبثه وسائل الأعلام، ان تلك الوسائل أصبحت من المعوقات الأساسية للنشاطات الاجتماعية التي تساعد على تواصل انتشار المادة الشعبية. فعالم النفس يوجين يقرر ان التلفاز سبب مباشر لتعرض الناس لاختلال وظيفي تخديري بسبب كثرة مشاهدتهم للبرامج التلفزيونية. ويقول يوجين " برغم ان مشاهدة التلفاز تبدو في الظاهر نشاطاً اجتماعياً يمارسه عدد من الناس بصورة مشتركة، إلا انه يكون، في الواقع، سبباً في اعاقة التفاعل بين الناس. فأية جماعة تجلس لمتابعة البرامج التلفازية هي، في الغالب، مجموعة من الأفراد المنعزلين الذين لا يجمعهم تواصل حقيقي لأنهم يعيشون متعة فردية وليست متعة جماعية تنتج عن المشاركة الفعلية في الحدث الترفيهي".

وعلى عكس ذلك يرى رايت ميلز ان وسائل الايصال الجماهيري ظاهرة فعالة تمنح الإنسان شعوراً بالانتماء والروح المعنوية العالية من خلال الهروب المؤقت من الواقع الشاق. ويؤكد ميلز ان هذه الوسائل تثري التجارب الإنسانية. فالناس صاروا يستقون أغلب مفاهيمهم وخبراتهم من البرامج التي تبثها وسائل الإعلام وليس من شظايا من تجاربهم الشخصية. وهذا الاختلاف في مصدر اكتساب التجارب المعرفية لدى الإنسان المعاصر أصبح له صدى في لغته اليومية والتي لخصها احد المرضى النفسانيين قائلاً: "الآن لا تحتاج ان تقلق بشأن قضاء وقت فراغك".

ومن الملاحظ ان الأطفال كثيراً ما يتأثرون بأبطال أفلام الكارتون والرسوم المتحركة ومسرح الطفل. ويقلدون هؤلاء الأبطال في سلوكهم وممارساتهم، لذا تعمل الجهات المسؤولة في الدول المتقدمة على غربلة البرامج الإعلامية الخاصة بالطفل لانتقاء المواد التي تثبت لديه القيم الأخلاقية الحميدة، وتبعده عن الانحراف.

ونتفق مع الباحثين في القول ان وسائل الإيصال الجماهيري الحديثة قد أثرت كثيراً في طبيعة وسمات المادة الشعبية، وأن هذا التأثير قد اتخذ جانبين، جانباً سلبياً وآخر ايجابياً. ولكننا نعتقد ان الجانب السلبي لهذا التأثير نتيجة حتمية لتطور الإنسان في المجتمع المعاصر، وحاجته الماسة للبحث عن مصادر جديدة للمادة الشعبية. ففي المفهوم التقليدي للفولكلور، كانت الكلمة المروية شفاهياً تتبوأ المكانة الأولى، ولكن هذه الخاصية قد تأثرت، إلى حد كبير، بالوسائط الجماهيرية الحديثة التي اعتمدت قنوات بث الكترونية ووسائل نشر مكتوبة. وعلى الرغم من ان هذه الوسائط لم تقض تماماً على الأدب المروي. كما سبق القول. والذي بقي نشاطاً انسانياً فاعلاً، إلا انها قلصت مساحة هذا الأدب كنمط فولكلوري مهم وقصرتها على فئات اجتماعية محدودة الكيان. إضافة إلى ان تلك الوسائط قد اصبحت، إلى حد ما، بديلاً ثقافياً واجتماعياً وترفيهياً لتلك الانواع الشفهية التي كانت تلعب دوراً وظيفياً في المجتمع. فجلسات القص الشعبي ومنتديات الشعر والغناء التي كانت تعقد في ساعات الفراغ وأوقات السمر بصفتها وسيلة ترفيهية مهمة، تحول عنها الناس إلى قراءة الصحف ومشاهدة التلفاز وسماع المذياع، فراوي القصة مثلاً، كان له جمهور مباشر يجالسه وجهاً لوجه ويستمع إلى حكاياته الشيقة ويتفاعل معه وينفعل بالأحداث التي يرويها ويتشوق لسماع الحكايات الطويلة التي يقصها لليال متتالية، معتمداً على قدراته الذاتية واستخدام صيغ فنية خاصة للتأثير في نفوس السامعين، كالتروي في السرد، والتوقف عن القص في المواقف الدرامية العنيفة، رغبة في إثارة خيال السامع وتشوقه لاستكمال الأحداث في الليلة القادمة. وكانت لهذه الحكايات وظيفة اجتماعية ومغزى تربوي مهم بما تزخر به من قيم أخلاقية تساهم إلى حد كبير في توجيه نمط السلوك الإنساني، كأن ترغب في اثابة الملتزمين بالسلوك الجيد، وترهب الخارجين عن القانون بالعقاب..الخ.

ولكن هذه الجلسات التي كانت تحقق متعة اجتماعية، لم تعد وسيلة ترفيه أساسية في حياة الإنسان المعاصر الذي شغلته ظروف الحياة المعقدة وإيقاعاتها السريعة، فاتجه إلى قضاء سويعات من فراغه في قراءة الصحف ومتابعة برامج الاذاعة والتلفاز والتي غالباً ما تشتمل على مسلسلات قصصية تنشر أو تذاع أو تعرض في حلقات تشبه إلى حد ما حلقات روايات القصاص الشعبي لتثير لدى الجمهور الفضول والتشوق ذاته الذي كان يثيره راوي الحكاية، فيقبل على متابعتها مشاهداً أو مستمعاً أو قارئاً. وهكذا نرى ان الوسائط الجماهيرية لم تصبح فقط بديلاً ترفيهياً لجلسات القصص الشعبي، وإنما استحوذت على وظيفتها الأساسية في التأثير في نفوس الناس على الرغم من أن تلك الوسائل قد خلقت جمهوراً غير مباشر، تفصله عما يشاهد أو يسمع أو يقرأ حواجز لا يستطيع ان يتفاعل فيها مع المؤدين بصورة مباشرة لينقل لهم مشاعر الاستحسان أو الاستهجان التي كان يواجه بها راوي الحكاية.

وعلى الرغم من ان هذه المسلسلات الروائية إبداع واع وأدب شائع ربما استوحى، في بعض الاحيان، ملامح من الأدب الشعبي، فإن اقبال الناس على متابعتها ومعايشتهم اليومية لنمو احداثها، وتأثرهم سلباً أو ايجاباً بأداء ابطالها، هو، دون شك، من المتغيرات الأساسية التي طرأت على أذواق الناس وأثرت في الوجدان الجمعي المعاصر، وهذه ظاهرة تستحق عناية الباحثين في الفولكلور. يدعو الباحث هرمن بوسنجر إلى الاهتمام بالثقافة الجماهيرية على انه بديل ترفيهي وظيفي، اصبح يحقق للناس ما يحققه الفولكلور من متعة وتفاعل نفسي. فمفهوم الشعب الذي صار يعني المجتمع بكافة فئاته يدعونا إلى تأمل هذه الظاهرات المهمة في المجتمع المعاصر. فأغلب الناس يشتركون بالاهتمامات ذاتها، ويشاهدون البرامج ذاتها، ويتأثرون بأداء الأبطال ذاتهم، وهكذا نرى ان قطار التطور صار يقود الإنسان إلى قبول الثقافة الجماهيرية ذات المحتوى الفولكلوري مهما كانت درجة تمثله أو عرضه.

إضافة إلى اتسام الفولكلور بخاصية ذات أهمية كبيرة في رصد تأثير الوسائط الجماهيرية في صياغة الثقافة الشعبية، وهي قدرته على التأقلم مع البيئة الجديدة ومواكبة تطور الحياة الإنسانية. فالفلولكور لم يعد في نظر الباحثين المعاصرين مجرد شيء قديم وشظايا من الماضي يجب احياؤها وصونها بل ابداعا حيا متجددا قادرا على التكيف مع المجتمع الإنساني الجديد. فالمأثور الشعبي لم يتقهقر تماماً أمام طغيان الوسائط الجماهيرية وانما استطاع ان يعدل وظيفته ويتسلل عبر قنواتها ليخدم اغراضاً ربما اختلفت بعض الشيء عن أغراضه الأصيلة. وفي دراسة للباحثة لندا ديك حول التطور الذي طرأ على رواية القصص الشعبي لدى روائيتين هاجرتا من هنغاريا إلى العالم الجديد، وجدت ديك ان السيدتين لا تزالان تمارسان رواية الحكايات على الرغم من افتقادهما المحيط الطبيعي لرواية تلك الحكايات وجمهورهما القديم في موطنهما الأصلي. وقد وجدتا في جهاز الهاتف وسيلة بديلة لسرد قصص أغلبها مستوحى من بعض مسلسلات التلفاز، كمسلسل الساحرة المشهور الذي يثير لديهما حكايات السحر التي كانتا ترويانها في هنغاريا.

ويصدق الأمر على اغاني البحر الكويتية التي تتردد في المذياع والتفاز، هذه الاغاني على الرغم من تبدل وظيفتها الاصلية كأغاني عمل صيغت اصلاً لتنظيم وحدات العمل الحركية، وبرغم تغير مرددها الأصليين، إلا انها لا تزال تغنى من اجل الحفاظ عليها كمعلم مهم من معالم تراث الكويت القومي. ولكي تطلع عليها الأجيال الجديدة.

وكما يشكل الفولكلور لبنة اساسية في تكوين الثقافة الجماهيرية، فان وسائل الإيصال الجماهيري ربما كانت مصدراً أساسياً للمادة الشعبية ووسيلة مهمة في سرعة انتشارها بين قاعدة عريضة من المشاهدين.

يقول برد: على الرغم من ان باحثي الفولكلور قد استعانوا بالصحف اليومية على انها مصادر لتوثيق ابحاثهم إلا انهم نادراً ما التفتوا إلى الوسائط الجماهيرية كمصادر حيوية للمأثور الشعبي يمكن ان تحل محل الرواة الذين يلجأون احياناً إلى المصادر المكتوبة لتنشيط ذاكراتهم. ويضيف بيرد ان الوسائط الجماهيرية قد ساعدت كثيراً على سرعة انتشار الإبداع الشعبي. وهذه الظاهرة قد أثرت، بلا شك على طبيعة تناقل المادة الشعبية سواء جغرافياً ام زمنياً. فانتشار المأثور الشعبي والتغيرات التي تطرأ عليه في رحلته الجغرافية والتاريخية والتي كانت تستغرق اجيالاً متعاقبة لم تعد اليوم تتجاوز دقائق معدودة للانتشار بعد ان تبثها وسائل الأعلام. فالحكاية والاشاعة مثلاً، تنتشر بسرعة كبيرة من خلال التلفاز والمذياع والصحف اليومية، فما ان تنشر احدى الصحف خبراً ما حتى تتداوله الألسن بالنقل والتعديل والتحرير، وهذه سمة من أهم سمات النص الشعبي الذي ربما يبدأ ابداعا فردياً ولكنه يتحول بالنقل الشفهي إلى ملكية جماعية. ووجه الاختلاف هنا فقط معيار.

شارع الرشيد

من المحرر

شكل شارع الرشيد منذ تأسيسه وافتتاحه عام ١٩١٦ مأثرة معمارية مهمة في تاريخ الفن المعماري العراقي رغم التشوهات العديدة التي (حفل) بها نتيجة لتدخلات السلطة في مختلف العهود (وحرفها) نسق الشارع المعماري عن سياقه البنائي العام واقتطاع أجزاء منه لصالح اعمال بنائية أخرى لا تتفق وشكل الشارع وفضاءاته ومنها بناية البريد المركزي ودخول جسر السنك في عمقه وساحة رأس القرية التي اقتطعت منه.

والمهم ان هذا الشارع الذي كتبت عنه الكثير من الدراسات لمحررين مرموقين مثل د.خالد السلطاني ود.محمد مكية ود.احسان فتحي وفنانين وكتاب مهمين مثل جبرا إبراهيم جبرا وغيرهم قد شكل جزءاً حيوياً اجتماعياً، وسياسياً وفنياً من ذاكرة بغداد خصوصاً ، والعراق عموماً، ومن يقرأ الكتاب الذي أعده كاتب هذه السطور عن (شارع الرشيد) وساهم فيه عدد من الكتاب العراقيين المرموقين يجد الكثير من التفاصيل التاريخية والمعمارية والفولكلورية عن هذا الشارع.

صحيح ان الوظائف السياسية والصحفية والتجارية لهذا الشارع قد تحولت عنه بفعل الزمان وتلاحق الاحداث وظهور شوارع جديدة في بغداد في الكرادة والاعظمية وفلسطين وبغداد الجديدة أخذت جزءا مهماً من تجمعه التجاري، لكن هذا الشارع يظل أساسا الرئة الحقيقية لبنية العاصمة، ومن يذكر شارع الرشيد، يذكر بغداد كما يذكر شارع العربي بن مهيدي في الجزائر والصالحية في دمشق وطلعت حرب وشارع الأزهر في القاهرة كما يذكر الشانزلزية في باريس ووول ستريت في نيويورك، فالشارع العريق والاساسي في المدينة هو هويتها الأساسية وقد أضعفت الدولة قيمة شارع الرشيد تدريجياً منذ العهد السابق وتحول هذا الشارع اليوم إلى كارثة معمارية وبيئية وتسلقت فيه جدران أمنية نصبت منذ مدخله في باب المعظم ووضعت أساطين كونكريتية في وسطه وانتشر باعة الأرصفة وسط الشارع وعصابات السرقة والاعتداء وأكوام النفايات فلماذا كل ذلك؟ وهل من سبيل لرفع هذه المساوئ من هذا الشارع الحيوي الجميل (سابقا) وإعادته إلى سابق عهده نظيفاً لامعاً يسير فيه المتسوقون والزوار كما يريدون بكل حرية ويعود أصحاب المصالح الى أماكن عملهم من دون زحام ولا مشكلات وتزدهر الورود فيه كما كانت.. هل من سبيل؟!

باسم عبد الحميد حمودي
Basimh37@yahoo.com

من أعلام الفولكلور

عثمان الكعّاك (١٩٠٠-١٩٧٦)

عبد الجبار عباس

هو عثمان بن محمد بن العربي بن عثمان الكعاك العياضي، من سلالة القاضي عياض الاندلسي الذائع الصيت، هاجر أجداده من الأندلس إلى تونس في بواكير القرن السابع عشر الميلادي.

ولد عثمان الكعاك في (كمرت) من ضواحي العاصمة التونسية، وتوفي في مدينة (عُنّابة) بالجزائر في ١٥ من تموز ١٩٧٦ ودفن بتونس.

من آثار الكعاك في ميدان الفولكلور:

١. الفولكلور التونسي، تونس ١٩٥٧،

٢. المدخل إلى علم الفولكلور، بغداد ١٩٦٤،

والذي يهمنا كتابه هذا الأخير الذي احتوى على اشارات ببلوغرافية ذات صلة بالفولكلور العراقي.

ولا غرابة في ان يكتب هذا الأديب التونسي عن الفولكلور العراقي، فقد زار العراق مرتين، الأولى في عام ١٩٥٤، والثانية في عام ١٩٦٢،

وخلال زيارته الثانية (قوّم تجربته الفولكلورية في سوق الصفارين ومطعم أحمد سمينة، والشورجة، وسوق الخفافين، وشارع النهر، والخانات القديمة، ومع باعة العاديات، والمصنوعات اليدوية)، كما ذكر المرحوم عبد الحميد العلوجي، الذي كتب المقدمة لكتاب الكعاك الموسوم (المدخل إلى علم الفولكلور).

لقد ألهمت الكعاك زيارته الثانية للعراق، فاكتشف ان في العراق ذخيرة فولكلورية لكن الباحث الفلكلوري العراقي يخجل من نشر المادة الفولكلورية، فقال: (أهل تونس رجمونا بحجارتهم . بادئ الأمر . ولكن أكثرهم اليوم، متفلكرون).

وعندما جاء الكعاك إلى بغداد في عام ١٩٦٢ وضع دراسته (المدخل إلى علم الفولكلور) في جلسة واحدة، وخلال سويعات، في مستراح فندق الخيام ببغداد، وقد رتب الفلكلور العراقي على وفق حروف المعجم العربية.

وفي بداية كتابه المذكور، عرّف الكعاك الفولكلور بقوله: (هو مجموعة ما أبدعه الشعب، من أول تاريخه، في ميادين العقيدة والثقافة والأدب والفن والمعمار والصناعات، لذلك نجد فيه مظاهر مختلفة من حضاراته المتعاقبة خلال أطوار تاريخية).

كما رتب مادة كتابه في بابين هما: دراسة الفولكلور، ومصادر الفولكلور العراقي، وقد قدم الكعاك محاولة ببلوغرافية لا بأس بها، كانت مدخلاً مضافاً إلى الفولكلور العراقي التي تزامنت مع محاولة الأستاذ كوركيس عواد الموسومة (الآثار المخطوطة والمطبوعة في الفولكلور العراقي) المنشورة في العدد الأول، السنة الأولى)، أيلول ١٩٦٣ من مجلة (التراث الشعبي) في إصدارها الأهلي الأول. ثم توالت المداخل إلى الفولكلور العراقي، منها (المكتبة الشعبية) للأستاذ عامر رشيد السامرائي المنشورة في مجلة (المورد) العدد الثالث، المجلد الثاني ١٩٧٣، وغير هؤلاء.

وصفوة القول، ان الأستاذ عثمان الكعاك، رحمه الله، قدم للفولكلور العراقي خدمة لا بأس بها من خلال كتابه (المدخل إلى علم الفولكلور)، هذا العلم الذي يراه متحفاً حياً لتاريخ الشعب وصناعاته ومبدعاته وفنونه وآدابه وأحاسيسه وألوان حياته المادية والعقلية والاعتقادية. فلنقبل نحن العراقيين على احياء هذا الموروث من دون كلل أو ملل، مهما اكتنفت طريقنا من صعوبات، لأن الموروث الشعبي جزء من هويتنا وشخصيتنا الروحية والحضارية.

ستديو ثقافة شعبية

جسر واتيلي في العشار- البصرة

جدول العشار في البصرة